صرخات الخلود

منى الفولي

بأحد معابد مصر القديمة، كان يجلس سنب ذلك الكاهن الشاب بسعادة على الكوش المزين بزهر الجنة، تجاوره ابنة عمه ومحبوبته الصغيرة حنوت، حيث يوثق والده كبير الكهنة زواجه منها، لتصبح شريكته كما حلم دائما.

نظر لها بحب وهو يردد ميثاق زواجهما أمام والده وبضعة شهود آخرين: بما أن مشيئة الإله اقتضت أن يرتبط أحدنا بالآخر برباط الزواج المقدس، وفقًا لتقاليد الرجل الحر والمرأة الفضلى، وقد وافق كل منا بمحض إرادته وكامل تصرفه وحرية اختياره كي تجيء هذه السيدة إلى بيتي كامرأة حرة على أن أقدرها كأنها قطعة مني، فلا أقلل من شأنها ولا أهملها ولا أهجرها إلا إذا اضطرني سبب شرعي مهم، فإذا حدث ذلك فسوف أقوم بإعطائها حقها الشرعي الذي أمر به الإله.

انتهى وهو ينظر بشغف لمحبوبته ملاحظًا ارتباكها، وعبثها بتلك الحلقة الذهبية التي تزين إصبع يدها اليمنى.

ـ سنب مشاكسًا وهو يمسك بيدها بإحدى يديه بينما يده الأخرى تمسك بوجهها ترفعه بحنان لتتواجه أعينهما: لا تعبثي بحلقة البعث حبيبتي، فقد حان وقت نقلها ليدك اليسرى.

ابتسم بسعادة وهو يرى آيات الخجل بملامحها ليكمل بوله: لا أصدق حبيبتي، أنك أخيرا قد صرتي حليلتي ورفيقة عمري، [متوددا] هل أنت سعيدة مثلي حبيبتي.

دفنت وجهها بزهور الياسمين وهي تخفي ابتسامتها التي يعشقها لتهمس بصوت خافت وهي تذوب خجلا: وكيف لا تسعد من تزوجت بمثلك حبيبي.

ـ سنب مشاكسا بغيرة مفتعلة: فلما تحرميننني من ابتسامتك الخلابة، مقبلة زهر الجنة، الذي بت أحسده.

جلس سنب يراقب عروسه المتهادية بشغف لم تنقصه الشهور التسع لزواجهما بل زاد شغفه بها مستمتعا بمراقبة مشيتها تأثرا بحملها لوليده الذي شارف على الوصول ليزيد من ارتباطهما الوثيق، ويكون بمثابة ثمرة حية لحبهما.

يركع سنب على قدميه بقلب مكلوم بينما تنهمر دموعه بلا وعي، ينظر لجسد

فاتنته وقد فقد نبض الحياة، يشاركها بذلك وليدهما الذي وضع بجانبها، انتظارا لتحنيطهما.

ـ لتنهمر دموعه وقد انفطر قلبه لفراقهما مغمغمًا بمرارة: خالفتي وعدك حبيبتي، وعدتني أن تهبيني جزءًا منا فوهبتي له حياتك، وتركتماني وحيدا، [مؤكدا بعزم وتصميم] ولكنه ليس فراقا أبديا حبيبتي، سيحنط أبي جسدكما الطاهر، كما يليق بحنوت عروس الجنة وحفيد كبير الكهنة، لم أكن لأترك روحكما هائمتان حبيبتي، وسأفعل كل ما بوسعي لأخلد قصة حبنا، حتى تصير أسطورة جديدة تتناقلها الأجيال، [وقد اشتعلت عينيه ببريق غامض] ولكنها ستكون أسطورة حية حينذاك.

يدلف سنب لتلك القاعة الجرانيتية الفسيحة، ومازال الحزن يسكن ملامحه رغم مرور شهرين على فقده لأحبته، ينظر بفخر وإعزاز لوالده المنكب على تلك الجثة التي ترقد على فراش خشبي، بينما هو يستخرج مخها من فتحة الأنف ببراعة منقطعة النظير، ليضعه بعناية داخل أحد الأواني الكانوبية، ليترك ما يفعله، بعدما انتبه لحضور سنب، لينظر له بلوم واستياء.

ـ سنب بارتباك: أرسلت بطلبي والدي.

ـ كبير الكهنة بحدة: أهلا بالسيد سنب، الذي مضى فيما عزم عليه متجاهلاً والده ومعلمه.

ـ سنب معتذرًا باحترام: لما استحققت الحياة، لو فعلت بك ذلك والدي.

ـ نهره كبير الكهنة موبخا بحدة نابعة من قلقه كأب: وبماذا تسمي أستأذنك للملك بأمر قد رفضته أنا مسبقًا.

ـ أخفض عينيه خجلا بينما يهمس بحروف تقطر ألما: حينما رفضت الأمر مسبقا كانت مجرد مغامرة خشيت على الموت بسببها، أما الأن فالأمر سيان، إما أن أعود بهما، أو يلحق جسدي بروحي التي ذهبت معهما، فكل ما يهمني أن اجتمع بهما ثانية، [محاولا تعزيز موقفه] والملك نفسه يوافقني الرأي بإمكانية نجاحي.

ـ أجابه متهكما بغضب: ولم لا يوافق وقد وجد أحمق يغامر بحياته ليأتي له بسر العودة من الموت والخلود، [لانت نبرته فهو يعلم حجم مصابه ومدى تأثيره عليه] أنت ابني، ووريث علومي، وكبير الكهنة من بعدي، فدعك من هذا الهراء، وسنلحق بهما جميعًا بالوقت المختار لكلا منا، لا تكن أحمق، فأنت ذو عقل متقد، وقد عالجت ملح النطرون وأحدثت تطور مذهل بعالم التحنيط، فاخلص لعملك ليفخرا بك بالعالم الآخر.

ـ سنب متوسلاً برجاء: أبي، الأمر يستحق المغامرة، حتى أن التحنيط نفسه، لن يعود ذو شأن، فما أهمية أن نعرف سر المحافظة على جثث هامدة وقد ملكنا سر العودة من الموت والخلود الأبدي.

ـ كبير الكهنة هاتفا بحدة وهو يلوح بيديه: أي عودة وأي خلود يا أحمق، لو كان ذلك اللعين ست يملك سر إحياء الموتى والخلود فعلاً، لما كانت لديه تلك المقبرة التي تحلم باقتحامها.

ـ أعترض سنب بإصرار استمده من أمله في التمسك بأي فرصة لإستعادتهما: الجميع يعلم أنه لم يكن يتصور انتصار سيدي حورس عليه، لذا لم يطلع مؤيديه على سر التعويذة [متحمسًا] ولكن الأنباء تواردت عن نقشه لمكان إخفاءه لها بمقبرته، على شكل أحجية، لم يستطع كبير الكهنة وقت دفنه حلها.

ـ كبير الكهنة متهكمًا: ذلك ما ردده كبير الكهنة وقتها قبل اختفاءه نهائيًا، بعدما فتح الباب للخرافات بإصراره على تقديم القرابين شهريا لمقبرة ست اللعينة؛ وإلا خرجت لعنته إليهم وقضت على الجميع.

ـ سنب مكابرًا: وطالما هي مجرد خرافات لما مازلنا نقدم تلك القرابين برغم مرور كل تلك السنوات.

ـ وهن صوت والده وهو يجيبه بحكمة السنين: الجهل والجبن هما السبب، لو كان الأمر بيدي لأوقفت تلك المهزلة فورا، ولكن الملوك أجبن من أن يبادروا بأمر كهذا، [متهكمًا] يخافون على عروشهم من المجهول، ويرون أنه لا ضير مادام الأمر لا يتعدى سوى التضحية ببعض البهائم، ولا يدركون أنهم يضحون بهيبتهم والمرضى المتحمسون أمثالك.

ـ سنب بصدمة: ماذا؟

ـ أجابه بحدة تمنى أن تفيقه من أوهامه: نعم يا أحمق، فأنت برغم ذكاءك المتقد، مريض باليأس، ذلك المرض الذي قضى على روحك ويدفعك دفعا نحو الهلاك، لتلحق بكل من سبقوك، وحاولوا اقتحام تلك المقبرة اللعينة، لتنبعث لنا صرخاتهم المدوية لعدة أيام من أسفل كامل أرض المملكة، وكأنما هم أشجار ألم امتدت جذورها.

ـ سنب بإصرار: ألا يعني ذلك بأن هناك فعلا سر بتلك المقبرة، ولكن من حاولوا كشفه لم يكونوا على قدر كافي من الذكاء لسبر أغواره.

ـ أجابه كبير الكهنة متهكما: وبالطبع أنت من تملك هذا الذكاء، وستعود متلحفا بالنصر، حاملا تعويذة إحياء الموتى والخلود.

ـ سنب بإصرار: ولما لا، [بتوق وشغف] تخيل وقتها كيف سيكون من الرائع أن نسترجع أحبائنا، أليس أمر يستحق المغامرة.

ـ كبير الكهنة بامتعاض: بل أنه أمر يدعو للذعر، تخيل أن يعود موتانا ويكتب للجميع الخلود، لتضيق بنا الأرض مهما رحبت ويشح الغذاء مهما كثر، لتسود الحروب والدمار.

ـ سنب بتفكير: أذن فلنجعل الأمر كالتحنيط؛ مقتصرا على الملك والنبلاء فقط، [بحماس] تخيل أن يتحلى الملك بحكمة السنين، وأن يختفي التناحر على ولاية العهد.

ـ كبير الكهنة بحكمة: بل تخيل أنت جبروت ملك لا يخشى الحساب بالعالم الآخر، يعلم أنه سيعود مخلدا يحكم فانين، يمجد أولادهم وذريتهم بطولاته الوهمية، التي رسمها بدماء أسلافهم.

ـ سنب مستنكرا: ولكن..

ـ كبير الكهنة بحزم: كفي سنب، لن نناقش هذا الأمر ثانية، وسنترك أمر ذلك اللعين ست ومقبرته، واستعد لما سيلقى على عاتقك من مسؤولية، فأنت خليفتي ووارث علومي، وكبير الكهنة القادم، وذلك أمر يحسدك عليه كثيرون.

ـ سنب مُتصنعاً الاستسلام و بضيق جلي: أمرك سيدي.

قال ذلك ولكن كان العزم يطل ويتقد بنظراته المصممة على المضي قدماً، فليس هو من يتراجع عن أمر قد يرد إليه ما ضاع منه، انصياعا لمن لا يشعر بضياعه، وما هو فيه من عذاب.

ـ كبير الكهنة بعطف: أنصرف الأن ولتحفظك الآلهة [بخفوت] من تمردك الذي تنهش أنيابه عقلك النابه.

بينما تتسللت أول خيوط الشمس محاولتاً تبديد جنح الظلام، كان سنب بزيه الفرعوني المميز يحاول التسلل متخذا من ذلك الظلام حليفا وساترا لما انتوى فعله، يسير محاذيا لتلك الصخور الضخمة، محاولا تفادي أن يراه أحد عيون أبيه ويوشي به لديه.

وصل لهدفه أخيرًا، فارتمى يحتضن صخور المقبرة بشوق محب ابتعد كثيرا عن محبوبته، يتلمس صخورها بشغف، وهو يهمس لها متوسلا أن تكشف عن سرها العظيم، كمن يبوح بحبه متوسلا القبول.

ارتفعت نبضات قلبه حتى خشي أن تفصح عن موقعه عندما تحركت إحدى الصخور تحت يديه حركة خفيفة، لينصب تركيزه عليها متفحصا لها حتى استطاع تحريكها حركة كاملة على محورها، ليكتم صرخة انتصاره بداخله

وهو يرى تلك الصخرة الضخمة تتحرك من موضعها كاشفة خلفها عن مدخل بين الصخور.

وقف بشموخ أمام اكتشافه العظيم، ملتقطا أنفاسه يرغب بإعلان نجاحه للعالم بأسره، ولكنه يعلم بأنه لابد له من التروي؛ حتى يصير نجاحه كاملا مدعوما بتعويذته السرية، فجثا على ركبتيه متفحصا ذلك المدخل بعناية، ليجد أنه عبارة عن ممر طويل ممهد ولكنه منخفض، يتحتم على من يود عبوره أن يعبره حبوا وهو جاثيا، طأطأ رأسه محاولا الانحناء بأقصى طاقته نظرا لطوله الفارع وجسده الممشوق، ليفزع وينتفض قلبه بجنباته وتفصّد حبيبات العرق جبينه بمجرد حبوه للداخل لرؤيته لكل تلك الهياكل على جانبي الممر ليتراجع هلعا، مستعيدًا كل مخاوفه بينما تدوي بأذنيه كلمات أبيه، ولكنه نفض عن عقله الذكرى والمخاوف، وقد عزم أمره؛ فلا يعقل أن يتراجع الأن بعد أن قطع ذلك الشوط البعيد بمغامرته الفريدة، وأمله المنشود.

عاد يجثو على يديه زاحفا داخل ذلك الممر المنخفض، وما كاد يقطع عدة خطوات داخله، حتى عادت الصخرة للانغلاق؛ بعدما ضغط سهواً على إحدى الصخور المتحركة، حاول الضغط عليها ثانية ولكن لم تتزحزح الصخرة من مكانها، فأيقن أنه لم يعد مخيرا الأن، وليس لديه سوى إكمال المغامرة لنهايتها.

أكمل زحفه بهمة وهو مندهش بأن الممر لم يظلم بانغلاقه، حيث تتسلل أشعة الشمس من عدة ثقوب بسقفه، كما يبدو أنه توجد أيضا فتحات للتهوية فالهواء متجدد لا يشعره بالاختناق، فحفزه ذلك على التقدم، محاولا تجاهل تلك الهياكل العظمية المترامية على جانبي الممر، والتي كانت تدب الرعب حقاً بقلبه الراجف، ولكن لا حل آخر سوى الاستمرار، وعند انتهاء مشواره المحفوف برائحة الموت لمن سبقوه بهذا التحدي الأحمق، فوجئ بأن نهاية النفق مغلقة بصخرة ملساء ضخمة لا قبل لأحد بزحزحتها عوضا عن حملها وهو منبطح بهذا الوضع، حاول تلمس الصخور بجانبها لعل إحداهما تحركها كما تحركت صخرة المدخل ولكن بلا جدوى، فبدأ يتحرك متخبطا بشكل محموم يطيح بالهياكل ربما خلف إحداها حل اللغز، حتى وقعت عينيه على أحد الهياكل تقبض عظام يده على بردية وكأنما كان يلتمس منها النجاة بلحظات موته حتى صارت كجزء منه، فانتزعها بقوة غير مباليا بتهشم عظام تلك اليد بقبضته فالذعر وصل به إلى أقصى مراحله وبات التمسك بأي أمل للخلاص هو هاجسه الوحيد، ليمسك بتلك البردية بيد مرتعشة ليقرأها بصوت حاول جعله ثابتًا رغم ارتجافه يحاول إيجاد الأنس والمساندة لنفسه بنفسه: {أهلا بك أيها الفاني بأرض الخلود، حيث خلود عظمة ست وحكمه للإحياء رغم انتقاله للعالم الآخر، بما أنك هنا بنفقي المقدس ساجدًا بخضوع لعظمة

ست؛ [تنتقل عينيه بين الكلمات قبل أن ينطقها لسانه لتتسكب الصدمة من حروف كلماته وهو يكمل] فقد وفي خادمي المخلص كبير كهنة حورس بعهده لي، وأوعز له بدفني بتلك المقبرة التي أعددتها لنفسي مسبقا، واهما أياه بأنها وحدها من ستحتوي شروري وتقضي عليها، بينما هي مهد عودة حكمي وخلودي على مر العصور، يدعي انتصاره علي بينما يقدم القرابين إتقاءًا للعنتي، مؤكدا سلطتي؛ لتسعي أنت وغيرك لنيل جائزتي الكبرى، قهر الموت والخلود، [بقهر وندم] وقد نلتها بالفعل، فلترتفع صرخاتك مدوية، لتسري عبر فتحات خفية تجوب المملكة، معلنة انتصارا جديدا لست، حيث عودة سيرته للحياة وخلود سلطانه وسيادته، وخلود أسمك، وعودة سيرتك للحياة مقترنا بسيرته كأحد ضحايا لعنته}.

أنهى قراءته لتبدأ ثورته ليتحرك بهيستريا رغم صعوبة وضعه، فينبطح على بطنه محركا قدميه ويديه مطيحا بكل ما يقابلها من عظام، بينما صرخاته الهادرة تشق السكون، ليهدأ فجأة كأنما ماتت الصرخات مختنقة بصدره، لترتفع رأسه بينما عينيه تلتمع بانتصار، كشعاع نور يشق الظلام، مادا يده يلتقط تلك البردية التي سبق ولفظها كأجرب، ليرتفع صوته بتحدي مكررًا قراءة تلك الجملة بانتصار: {فلترتفع صرخاتك مدوية، لتسري عبر فتحات خفية تجوب المملكة}، ليتحرك فجأة بهمة وقد دب النشاط بسائر جسده،

ليزحف إلى أكثر الهياكل تحللاً، ممسكًا بعظمة الساق المهترئة، ليصدمها عدة مرات بالحائط الصخري الصلب بشكل مدروس، حتى تكسرت لعدة أجزاء، فأمسك بذلك الأنبوب العظمي المفرغ بعزم فهو لن يكون يوما من ضحايا ست، لن يسمح له أن يعامله كقطعة حطب تأجج نار سيادته وتحي سيرته وتخلد لعنته المزعومة، فلن تحمل تلك الفتحات الخفية بأرجاء المملكة صرخاته بل ستحمل الحقيقة كاملة وستزداد وضوح كلماته وقوتها باستخدامه لذلك البوق العظمي، ولتكن لحياته ثمن، ولتحيا سيرته، ليس كأحد ضحايا ست، بل كمن قضى على لعنته.

بخارج المقبرة.

وقف كبير الكهنة متوترًا، يتابع العمال الذي يحاولون العثور على مدخل المقبرة، وكذلك الذين يحاولون هدم أحد جدرانها، وهو يلقي تعليماته على كلا الفريقين من وقت لأخر، ليزفر براحة بعدما عاد صوت سنب يدوي وهو يقرأ الرسالة، يبدو أنه قد غفا ولم يمت كما توجس، برغم علمه أن من سبقوه ظلوا يصرخون لعدة أيام حتى أنهكت قواهم، فما باله بذلك الصنديد، ولكنه قلق الأب على أولاده، لعن بداخله كون الأصوات لا تنتقل للداخل، وألا كان سمعه وأجابه كيف فتح تلك المقبرة اللعينة، ولكن أمله كبير فالمملكة عن

بكرة أبيها تجاهد لإنقاذه بعدما أنقذهم بشجاعته من براثن الوهم، المهم أن يصمد هو حتى هذا الوقت.

شخص نظره وهو ينظر للمقبرة برهبة وهو يهمس برجاء: أصمد يا بني، أصمد لتخرج ملتحفًا بالنصر على رمز الجبروت والظلام.

داخل المقبرة

صمت يلتقط أنفاسه وقد أجهده العطش، لا يعلم كما لبث بذلك الممر ولكنه يرجح أن النهار قد انتصف، حاول تحريك عضلاته بصعوبة وقد تيبست من ذلك الوضع، ليقع نظره على مشهد ارتجف له قلبه، حيث تلاقت أشعة الشمس النافذة للمكان، على إحدى الصخور لتتشكل على هيئة شمس صغيرة، زحف ببطأ حتى وصل لتلك الصخرة ضاغطًا بيده على قلب تلك الشمس، لتتحرك الصخرة للخلف كاشفة خلفها عن ممر أخر يفضي للمجهول، قد يفتح بابا للنجاة، أو أبوابا للجحيم.

***